جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم عـلوم القرآن والتربية الاسلامية

المحاضرة : السابعة

المرحلة : دكتوراه ـ الدراسات العليـا

اسم المادة : اسانيد وعلل

عنوان المحاضرة : أثر علم الجرح والتعديل في العلوم الإسلامية

اسم التدريسي : أ . د عـــدي جاسم حماده الجـبـوري

أثر علم الجرح والتعديل في العلوم الإسلامية

عرفنا فيما مضى أنّ غاية علم الجرح والتعديل تثبيت الحق، وترك الباطل، ومن هذا المفهوم والغاية كان للجرح والتعديل أثر في العلوم الإسلامية .

إنّ تأثير علم الجرح والتعديل كان واضحًا في كل العلوم الإسلامية، ولكنه ظهر ظهورًا واضحًا في علوم (القراءات القرآنية، والقضاء، والتاريخ، والأدب واللغة).

أما القراءات القرآنية فقد أفادت من ضوابط الجرح والتعديل بعدما انتشر الإسلام وأصبح بعض المسلمين يلحنون في قراءتهم؛ لذا وضع الأئمة ضوابط في قبول رواية القراءة، فيقول "ابن الجزري" (ت: ٨٣٣هـ): (كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، أو وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي تنزل بها القرآن) .

لقد كان هذا الميزان هو ضابط التعديل والتجريح في قبول القراءات القرآنية، ونتج عنه أن كل قراءة اختل فيها ركن من هذه الأركان الثلاثة وهي (السند، والرسم، والعربية) فهي قراءة ضعيفة، أو شاذة، أو باطلة.

إن العلاقة بين علم الجرح والتعديل وعلم القراءات ظاهرة في (صحّة السند) في القراءات، وقد فسّر "ابن الجزري" صحة السند بتفسير علماء الجرح والتعديل نفسه، إذ قال: (وقولنا: صح سندها، فإنا نعني به أن يروي تلك القراءة العدل الضابط عند مثله، كذا حتى ينتهي) ، فهذا عين تفسير علماء الجرح والتعديل، ومن هنا ظهرت عند أهل القراءات مصطلحات علم الجرح والتعديل مثل: (القراءة المتواترة، والقراءة المشهورة، والقراءة الشاذة، والقراءة الموضوعة) ، فمن خلال ما تقدّم اتضحت لنا علاقة علم الجرح والتعديل بعلم القراءات القرآنية وأثره فيه.

أما في جانب العلوم اللغوية والأدبية فقد تأثرت هذه العلوم بطريقة الجرح والتعديل في تنقية الرواية وقبولها، والتأثر بمدلولات ألفاظ الجرح والتعديل، فقد سار أهل اللغة بسير علماء الجرح والتعديل، فمن ذلك قول "ابن فارس" (ت: ٣٩٥هـ): (فليتحرَّ أخذ اللغة وغيرها من العلوم أهل الأمانة والثقة والصدق والعدالة) .

، وكذلك قول "أبي البركات الأنباري" (ت: ٥٧٧ هـ): (العدالة شرط في قبول الخبر) ، وكذلك جعل اللغويون للرواة مراتب، فمن ذلك قولهم مثلاً: (كان واسع الرواية جيد الخط غاية في الضبط والتصحيح) ، وقال "ابن السكيت" (ت:٢٤٥ هـ) في تقييم رواية "قطرب" (ت: ٢٠٦هـ): (كتبت عنه قمطراً ثم تبينت أنه يكذب في اللغة فلم أذكر عنه شيئاً) .

ومع كل هذا الوضوح في تأثر علم اللغة والأدب بعلم الجرح والتعديل نجد الدكتور "ناصر الدين الأسد" ينفي وجود أثر لعلم الجرح والتعديل في علوم اللغة والأدب، إذ يقول: (إن كثيرًا من التجريح والتضعيف والاتهام والكذب والوضع إنما كان مصدره خصومات شخصية أو خلافات مذهبية لا نصيب لها من التحقيق العلمي الذي يطمأن إليه) .

إنّ أهل اللغة والأخبار لم يهملوا البحث عن أحوال اللغات ورواتها جرحًا وتعديلاً ، بل بينوا ذلك كما بيّن ذلك علماء الجرح والتعديل.

أما في الجانب التاريخي فمن المعلوم أن المسلمين كانوا قد كتبوا سيرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في وقت مبكر وكان نواة السيرة النبوية هو الحديث النبوي الشريف الذي وضع له المسلمون نهجاً خاصاً في تقبله ورواته، وكان من أثر الجرح والتعديل في مجال السيرة أنّ روايات الثقات أصبحت محط عناية الرواة والنقلة، وانتشرت الأخبار التي رووها، على حين أهمل التجريح كتب كثيرين ممن لم يكونوا من الثقات، فـ"محمد بن عمر الواقدي" (ت:٢٠٧هـ) كان واسع العلم بالتاريخ ولكنه ضعيف في الحديث، ويقول عنه "ابن حجر العسقلاني" (ت:٨٥٢هـ): (متروك مع سعة علمه) ، وكذلك قيل عن "أبي مخنف لوط بن يحيى" (ت:١٥٧هـ) إنه أخباري متروك ، وغيرهم كثير ، ممن وضعوا على ميزان الجرح والتعديل، وكانت المؤلفات التاريخية على اختلاف أنواعها ومشاربها تنقل الأحاديث بالإسناد وكان التعديل والجرح أول ما ينصب على رجال السند سواء المؤلف أو من فوقه.

إن الارتباط الوثيق والتشابه الكبير بين مناهج المحدثين ومناهج المؤرخين يعود سببه إلى أن أكثر المؤرخين في العصور الأولى كانوا من المحدثين ، ولذلك كانت شروطهم مشابهة لشروط أهل الحديث، والتي هي: العدالة مع الضبط التام الناشئ عن فريد الإتقان والتحري .

فهذه أهم مظاهر أثر علم الجرح والتعديل بالعلوم الإسلامية وغيرها كثير حتى لا يكاد علم إسلامي يخلو منها.

ومن هنا يظهر لنا مفهوم "صالح الحديث"، و"صالح" عند أهل المصطلح

تعاورت على مصطلح "صالح" رتبة اصطلاحية حتى استقرَّ في الأذهان أنّ هذا الاصطلاح ثابت وسائد منذ نشأته وحتى اكتماله، ولكنَّ الدارس والباحث عن هذا المصطلح يرى تدرّجه وتفاوته في مدلوله بين اللغة الوصفية عند المتقدمين وبين المصطلح العلمي المقصود به رتبة التوثيق عند المتأخرين، والذي يبدو لي أن هذا المصطلح في مدلوله قبل أن يستقر كان على ما يأتي:

أولاً: المدلول اللغوي العام الوارد في القرآن الكريم والسُّنة المشرفة وكلام العرب قبل نشوء علم الجرح والتعديل ونشوء مصطلحاته وألفاظه، ويُراد به الثناء عمومًا والمدح المقابل للفاسد والسيئ، ومنه قوله تعالى: (ولا تُفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) . الأعراف:٥٦.، وقوله:(خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئا) . التوبة:١٠٢..

ويُطلق ذلك المفهوم على العمل وصاحبه ومنه حديث جابر . رضي الله عنه . في موت النجاشي قال: قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم .: (مات اليوم رجلٌ صالح فقوموا فصلُّوا على أخيكم أصحمة) ، ومن السنة أيضا قوله . صلى الله عليه وسلم . في عبد الله بن عمر بن الخطاب . رضي الله عنهما . "إنَّ عبد الله رجلٌ صالح" ، ومنها أيضا قوله . صلى الله عليه وسلم . لعمرو بن العاص . رضي الله عنهما .: "يا عمرو نِعمَّا بالمال الصالح للرجل الصالح" .

ومن أشعار العرب في إطلاق "صالح" قول امرئ القيس في معلقته:

ألا رُبَّ يومٍ لك منهنَّ صالحٍ ولا سـيّما يـومٍ بـدارةِ جُلْجُـلِ

ولا ينازع أحدٌ في مفهوم "صالح" اللغوي المراد بذلك ولكن الذي ينازع فيه ما أطلقه علماء الجرح والتعديل المتقدمون على بعض الرواة لبيان وصف الراوي وهذا ما يتجلى في الآتي:

ثانيا: استعمال مصطلح "صالح" عند المتقدمين:

والذي يبدو لي من خلال استقراء أقوال المتقدمين أنهم كانوا يستعملون مصطلح "صالح" استعمالاً وصفيًا، وليس اصطلاحا علميا حديثيا، ويدل على ذلك ما يأتي:

١ـ قال ابن أبي حاتم: "أخبرنا حرب بن إسماعيل فيما كتب إليّ قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: بكير بن الأشج ثقة صالح" .

فقد استعمل الإمام أحمد بن حنبل لفظ "صالح" مركبا مع لفظة "ثقة" ولا يشك أحدٌ أنهما رتبتان مختلفتان يطلقان على الراوي فالثانية تُطلق على من صحَّ حديثه والأولى لمن حسن حديثه عند التفرد، وهذا يدل دلالة قطعية على أن المتقدمين من علماء الجرح والتعديل استعملوها وصفا لا اصطلاحا.

٢ـ ونحو ما تقدم ما ورد عن الإمام يحيى بن معين أنه قال في "جعد بن عبد الرحمن صالح ثقة".

٣. ونحوه أيضا قوله في الراوي:(الحسن بن عبيد الله ثقة صالح) .

٤. ومنها قول أبي حاتم الرازي في الراوي حماد بن خالد الخياط القرشي:"هو صالح الحديث ثقة".

٥. ومنها قوله أيضا في الراوي حاتم بن أبي صغيرة وأبو صغيرة أبو أمه وهو ابن أسلم:

"ثقة صالح الحديث" .

٦. ومنها قوله أيضا في الراوي حرّ بن الصيّاح الكوفي: "ثقة صالح الحديث".

٧. وقوله أيضا في ترجمة خلف بن تميم بن أبي عتاب : "ثقة صالح الحديث".

وغير ذلك من هذه النقولات عن جهابذة أهل الجرح والتعديل والذين عوَّل المتأخرون على أقوالهم تعويلاً كاملاً فعند المتقدمين رتبة "صالح"، و"صالح الحديث" لا يُراد بها ما يقصده المتأخرون من أنه نوع ثناء على ضبط الراوي وهي رتبة من يحسن حديثه عند التفرد.

لقد جعل الإمام "عبد الرحمن بن مهدي" الرواة على ثلاث طبقات كما أخرج ذلك عنه "الخطيب" في الكفاية حيث قال: (الناس ثلاثة: رجل حافظ متقن فهذا لا يختلف فيه، وآخر يهم والغالب على حديثه الصحة فهذا لا يترك حديثه، وآخر يهم والغالب على حديثه الوهم فهذا يترك حديثه) ، ومن الأئمة من جعل الرواة على أربع مراتب كـ "ابن رجب الحنبلي: الذي قال في شرحه لعلل الترمذي:

والرواة ينقسمون على أربعة أقسام: أحدها: من يتهم بالكذب، والثاني: من لا يتهم، ولكن الغالب على حديثه الوهم، وأن هذين القسمين يُترك تخريج حديثهما إلا لمجرد معرفتهما، والثالث: من هو صادق ويكثر من حديثه الوهم ولا يغلب عليه وقد اختلف العلماء في الأخذ عنهم، والرابع: الحفّاظ الذين يندر أو يقل الغلط والخطأ في أحاديثهم وهذا هو القسم المحتج به بالاتفاق، أما ابن أبي حاتم فقد جعلها خمس مراتب فقال: (منهم الثبت الحافظ الورع المتقن الجهبذ الناقد للحديث، فهذا الذي لا يختلف فيه، ويعتمد على جرحه وتعديله، ويحتج بحديثه وكلامه في الرجال، ومنهم العدل في نفسه الثبت في روايته الصدوق في نقله الورع في دينه الحافظ المتقن فيه، فذلك العدل الذي يحتج بحديثه ويوثق في نفسه، ومنهم الصدوق الورع الثبت الذي يَهِمُ أحيانا وقد قبله الجهابذة النقاد فهذا يُحتجُّ بحديثه، ومنهم الصدوق الورع المغفَّل الغالب عليه الوهم، والخطأ والغلط والسهو، فهذا يكتب من حديثه الترغيب والترهيب، والزهد، والآداب، ولا يحتج بحديثه في الحلال والحرام، ومنهم من ألصق نفسه بهم ودلّسها بينهم ممن ليس من أهل الصدق والأمانة ومن قد ظهر للنقاد العلماء بالرجال أولي المعرفة منهم الكذب فهذا يترك حديثه وتطرح روايته.